متشابهة في الخواص المتقدمة على ما يظهر اذ لم يميَّز بعضها عن بعض حتى الآن في ما نعلم

وفي ضواحي بيروت مكان يسمى البوشرية ولعل اسمهُ فرنسوي الاصل (امبوشير) معناهُ مصب النهر لانهُ قريب من مصب نهر بيروت حيث كان يصبُّ قديمًا وهذا المكان مشهور بالملاريا حتى لا يبيت احد فيهِ ويسلم من الحمى. وفي ساحل بيروت كلام يتناقلهُ الناس وهو "قالت حارة حريك للبوشريًا مَن عجزتِ عنهُ رديهِ عليَّ" دلالة على ان هذين المكانين يتباريان في قتل الناس بالحمى ولذلك لا يستغرب وجود بعوض الملاريا فيهما. وقد اتصل بنا الآن ان المستر داي استاذ التاريخ الطبيعي في المدرسة الكلية الاميركية وجد هذا البعوض هناك فلم تبقَ شبهة في انهُ هو سبب انتشارها بهِ

ويصعب على السكان في تلك المنخفضات ان يتخلصوا من هذا البعوض لان القنوات التي يجري فيها ماء نهر بيروت لري بساتين الساحل طويلة مستوية اذا انقطع جري الماء منها بين عدَّان وعدَّان بقي فيها من الماء الراكد ما يكون تعضنًا لبعوض الحمى وعُوَّمهِ فيبيض فيهِ ويتكاثر. ولا سبيل لهم للتخلص منهُ الاَّ بتدبير ماء الري حتى لا ينقطع جريهُ من تلك القنوات. ولو تمَّ اجراؤُهُ كلهُ في القناة العليا وتفرَّعت منها فروع جانبية على طولها تروي كل الاراضي التي تحتها لبقي الماء جاريًا فيها كما في نهر وامتنع تولُّد البعوض منهُ لا سيما وان بعوض الحمى لا يتولد الاَّ في الماء الراكد القليل

تاريخ الفلسفة الحديثة

يعتبر المؤرخون زمن ابتداء الفلسفة الحديثة منذ ظهور الفيلسوفين العظيمين باكون وديكارت وهما اللذان ناصبا الفلسفة المدرسية حربًا عوانًا فدكا معاقلها ونسفا حصونها وجعلاها اثرًا بعد عين

على انَّ هذا النصر المبين لم يعقدهما بنودهُ الاَّ وكانت الايام من قبل ظهورهما قد هيأت النفوس واعدت الخواطر للاخذ بناصرهما ولتلبية ندائهما لنسخ القديم نسخًا مطلقًا والنسج على منوال جديد يعتق العلم من رق الحدس الباطل والوهم الفارغ ويجعلهُ حليف الحقائق الراهنة المبنية على الاختبار الطويل والبحث الدقيق

وقبل اطلاق الكلام عن الفلسفة الحديثة وما كان من امرها نذكر تمهيدًا لمعةً من حالها قبل تقمصها الثوب الجديد وظهورها على هذا الشكل البديع الذي رفع شأن الانسانية واعلى

منارها وادرّ على الانسان من المنافع ما لا يقع تحت حساب

لا يخفى ان سقوط الدولة الرومانية الغربية اسقط معهُ التمدن الروماني واصبحت أُوربا اثر ذلك السقوط في حالة اقرب الى البداوة منها الى الحضارة كما شهد لنا تاريخها وشهادتهُ حق وهي ان انتشار الدين المسيحي في هاتيك الاصقاع وما في تعاليمهِ من المبادئ السامية والآداب العالية دفع عن أُوربا استفحال البربرة والخشونة وامسكها عن التهالك في الجهالة وصيّر مجتمعها الانساني في حالة ارقى كثيرًا من حالتها يوم لم تكن بعدُ قد بزغت اشعة الدين المسيحي في ارجائها

ولما عمّ الدين المسيحي اوربا بجملتها نهض نفر من رجالهِ واخذوا في درس الفلسفة وتعليمها وما توالت الايام حتى سنة ٨٠٠ م الاّ وكانت الفلسفة والعلم بيد رجال الدين ودعاتهِ على ان تلك الفلسفة لم تكن الفلسفة اليونانية بتمامها وسائر مذاهبها وطرقها وانما اتخذت عندهم شكلاً خاصًّا حيث انحصرت في منطق ارسطو وفلسفة اوغسطينوس . وجملة القول ان هذه الفلسفة لم تكن الاّ الادلة على حقيقة الايمان ولم تكن تتوخى الاّ تلك الغاية وهي خدمة الدين والخضوع التام لهُ وذلك شأن كل فلسفة في بدء امرها ان تكون والدين يدًا واحدةً ثم تنفصل عنهُ تدريجًا وتستقل مع الايام بذاتها. اعتبر ذلك في فلسفة الهند واليونان فانها خرجت من الدين ولكنها لم تخرج منهُ دفعةً واحدةً وانما قضت دهرًا طويلاً حتى تهيأ لها الاستقلال

وليس بالمستغرب خضوع الفلسفة للتعاليم الدينية زمن العصور الوسطى اذ كان كل المجتمع الانساني بسائر شؤونهِ تحت حكم الكنيسة ومطلق تصرفها . وقد عرفت فلسفة هاتيك الايام بالفلسفة المدرسية ولا يعنى بهذا الاسم الاشارة الى مذهب خاص وانما يراد بهِ الفلسفة التي كانت تُعلَّم في الصوامع والاديرة من القسس والرهبان وسائر القائمين على خدمة الدين

وقد قسم مؤرخو الفلسفة العصر المتوسط الى ثلاثة ادوار الدور الاول يبتدئ من ايام شارلمان سنة ٨٠٠ م وينتهي سنة ١٢٠٠ م وكانت الفلسفة في غضون هذه الاعوام خاضعة للدين كل الخضوع كما سبق فقلنا واما في الدور الثاني الذي ينتهي سنة ١٤٠٠ م فانها اتحدت بهِ اتحادًا تامًّا وهي في كلا الدورين على منهاج واحد وحالة مستقرة اي انها لا تتجاوز في ابحاثها الى ما وراء منطق ارسطو وفلسفة اوغسطينوس . وقد نقل في الدور الثاني بضعة من يهود الاندلس الى أُوربا شيئًا من مؤلفات ارسطو عن الطبيعة ورسالتهُ عن النفس ونبذًا اخرى من محاورات افلاطون مشروحة شرحًا دقيقًا من نوابغ العرب وفلاسفة هاتيك القرون كابن رشد وابن سينا وغيرهما ومع ذلك ظلّت الفلسفة المدرسية صاحبة السيادة المطلقة

ولها المحل الاول

هذه هي الحالة الفلسفية بمدى الدورين ولا ريب ان خضوع العقل الانساني لعلم واحد وبقاءه السنين الطوال ضمن دائرة ضيقة لا يباح له الخروج منها ولا التطلع الى ما ورائها لمما يذهب بمضاء الذهن ويكسب الخواطر الخمول ويجعلها في حسبان الجماد لان الحركة والنماء من خصائص الحياة

اما الدور الثالث الذي ينتهي سنة ۱٦۰۰ م والمعروف بزمن النهضة فيباين الدورين الاولين من حيث انهُ استهلّ ايامهُ بافتراق الفلسفة عن التعاليم الدينية افتراقاً ضيقاً ثم اخذ ذلك الافتراق بالاتساع شيئاً فشيئاً حتى انتهى الامر باستقلال كلٍّ منهما استقلالاً تاماً . على ان من اسباب هذا الافتراق سقوط الدولة الرومانية الشرقية فانهُ لدى دخول محمد الفاتح الى القسطنطينية رحل كثيرون من علمائها الى ايطاليا والبلاد المجاورة لها وحملوا معهم اليها الفلسفة اليونانية وسائر فنونها بحيث لم يأت القرن السادس عشر الاَّ وانتشرت المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة في كل اوربا وانضمَّ تحت لواء كل منها نفر من جهابذة العلماء وخيرة الاذكياء على ان هذا الدور لم يحدث في الفلسفة شيئاً جديداً غير اعادة القديم والتفاني في اتباعهِ وتهيئة الخواطر لاقتبال الانقلاب الفلسفي

ولا جرم ان ذلك الانقلاب العظيم نتيجة لازمة عن النمو المعنوي الذي استتر في طيات القلوب زمن النهضة ثمَّ تجلى للعيان اوائل القرن السابع عشر بمظهر جديد من القوة غار بها على القديم فزعزع اركانهُ ونسف دعائمهُ نسفاً

هذا وقد انتهت العصور المتوسطة وانتهت معها الفلسفة المدرسية وجاء القرن السابع عشر بفلسفتهِ الحديثة التي من خصائصها المميزة لها الاستقلال فانها استقلت اولاً عن علم الدين واتبع كل منهما الغاية التي وضع لاجلها فغاية العلم البحث عن حقائق الموجودات وغاية الدين سامية وهي نشر الحقائق التي فوق الطبيعة والدفاع عنها وصار العلم لهذا العهد مباحاً للطالبين من اي صنف كانوا ولم يعد مخصصاً بدعاة الدين ولا محصوراً في صوامعهم وحسبك ان مؤسسي الفلسفة الحديثة لم يكونا من خدمة الدين ودعاته بل كان الواحد منهما متشرعاً والثاني جندياً

ثانياً انها رفعت عنها سلاسل التقليد وسعت وراء الحقائق تتناولها بسبيل الامتحان والاستقراء . ألا ترى انهُ كان في مجرد الاسناد الى كلام سقراط واقوال افلاطون وغيرهما من اقطاب العلم ما يغني عن الحجة القاطعة والبرهان الدامغ كما كان زمن النهضة اي في القرنين

الخامس عشر والسادس عشر فان رجال ذينك العصرين بالغوا في الانقياد الاعمى للفلسفة اليونانية ولآراء رجالها بحيث كانوا يسترسلون لكل قضية قال بها فيلسوف من اولئك الفلاسفة ولو ان الادلة تكذّبها وظواهر الحال تنقضها. وسبب ذلك الغلو في التقليد والمتابعة ظاهر لمن اطّلع على حالة الفلسفة في اوربا قبل زمن النهضة وعرف مكانها من الخلل ومحلها من القصور ثم نظر الى الفلسفة اليونانية فراها مع ما هي عليهِ تسمو الفلسفة المدرسية من وجوهٍ كثيرة فلا يعجب بعد هذا من تهافت الافرنج على درسها وانزالها من التجلّة مكاناً رفيعاً وحسبان اقوال رجالها فصل الخطاب في كل بحث فذلك طبيعي في كل امة تتصل بامة تعلوها حضارة وتفوقها ادراكاً ان تأخذ في تقليدها في سائر احوالها وتتابعها في جميع شؤونها. اما زعماء الفلسفة الحديثة كباكون وكساندي وليبنتيز وسبنيوزا وديكارت ومن جاء بعدهم فلم يستندوا في ابحاثهم الى آراء الفلاسفة المتقدمين ولم يتخذوا كلامهم حجة لتأييدما يذهبون اليهِ بل لم يكن لها عندهم اقل اعتبار

قلنا ان مؤسسَي الفلسفة الحديثة هما باكون وديكارت فانهما رأيا انحطاط العلم ووهن اصولهِ ووجوب اصلاحهِ فسعيا الى ذلك جهدهما حتى بلغا الغاية الاّ ان كلاً منهما سلك الى ذلك سبيلاً غير سبيل الآخر فانهما وان اتفقا في سلوك طرق التحليل فقد افترقا بان اتخذ ديكارت شهادة العقل فكان ابا للمذهب الصوري Idéalisme وباكون تخير شهادة الحس فحسب ابا للمذهب الحسيّ Sensualisme وسنورد هنا شيئاً من اراء كلٍّ منهما مبتدئين اولاً بباكون لسبق عهدهِ

باكون

هو فرنسيس باكون فيكونت سان البنس وبارون فرولام ولد في لندن سنة ١٥٦١م وهو اصغر اخوتهِ رأى فيهِ ابوهُ منذ نعومة اظفارهِ توقّد خاطرٍ ومضاء ذهنٍ لا يكونان الاّ في اعاظم الرجال ونوابغ الدهر فارسلهُ وهو في الثانية عشرة من سنيهِ الى مدرسة كمبردج حيث تلقى العلم ثم خرج منها وأُرسل الى سفارة دولتهِ في باريز ولم يقم هناك طويلاً حتى اضطرّ الى الرجوع بسبب موت ابيهِ ولأنهُ لم يترك لهُ من الثروة ما يقوم بهِ ولهذا درس الحقوق ليحصل على المال فجعلتهُ الملكة اليصابات محامياً في مجلسها الخاص ثم انهالت عليهِ الالقاب والرتب جزاء تفوّقهِ وبلاغة عبارتهِ حتى قال فيهِ احد واصفيهِ : لم يكن سامعوهُ يحسّون الاّ انتهاء كلامهِ : وكان في تضاعيف تلك المدة ينشر تآليفهُ الشهيرة التي كان يقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً وتترجم الى لغات كثيرة . ولامور لا محل هنا لذكرها حُكم عليهِ بالسجن ثم عفى الملك عنهُ فانقطع

الدرس والتأليف ومات سنة ١٦٢٦م وترك في الوجود اسماً عطرًا يبقى بقاء الدهر

هذه لمحة من حياة باكون في مظهرها العالمي بقي علينا ان نذكر الرجل في مظهره الفلسفي فانهُ اخذ على نفسهِ محو الفلسفة القديمة محوًا مطلقًا ولاجل ذلك وضع مؤلفهُ الكبير المعنون Instauratis Magna اي الاصلاح العظيم والكتاب مقسوم الى ستة اجزاء ابان في الجزء الاول منهُ وهن دعائم العلم لذلك العهد ثم ذكر في الجزء الثاني امكنة الضعف وقال بوجوب اتخاذ الملاحظة بدل الحدس والاستقراء عوض القياس واوضح في الجزءين الثالث والرابع انهُ يجب على الانسان الاّ يكتفي بالطريقة المار ذكرها بل يعلم كيف يستخدمها وذلك ان يجمع اولاً بواسطة الملاحظة والامتحان الحوادث الطبيعية ثم يرتقي منها صعدًا الى معرفة اسبابها واكتشاف شرائعها العامة ثم يعود نزولاً من الشرائع العامة الى الحوادث الخاصة . وابان في الجزئين الخامس والسادس انهُ لم يأتِ بعد الوقت الذي تعزز فيهِ طريقتهُ بالاكتشاف ثم بيَّن اوجه الفرق بين الفلسفة الحقيقية والعلم المدعوم على اسس واهية وسمّى الجزء الخامس دليل الفلسفة والجزء السادس الفلسفة الحقيقية

ولم يكن لهُ مذهب خاص في الفلسفة وان حسبوه ابًا للمذهب الحسي الجديد وانصرف معظم ابحاثهِ ان لم نقل كلها نحو الفلسفة الطبيعية وانحصر في الطبيعيات جملةً ولم يرَ لهُ في مؤلفاتهِ الكثيرة كلام عن الفلسفة البحتة وانما عرَّفها في بعض مقالاتهِ انها من الآثار القديمة التي ليس في درسها شيء من الفائدة سوى ضياع الوقت عبثًا . ولربما كان استغراقهُ في درس الطبيعيات وسكوتهُ عمّا سواها من العلوم الفلسفية مما حمل عداتهُ وحسادهُ على رميهِ بالكفر وحسبانهِ من اعداء الديانة كذبًا وافتراء وهو على الضد من ذلك فانهُ كان معروفًا لدى مريديهِ بقوة العقيدة تشهد لهُ كتاباتهُ بشدة تمسكهِ بعروة مذهبهِ وطالما كرر الجملة الآتية وهي ان معرفة الشيء القليل من الفلسفة الطبيعية تقود الانسان الى الكفر ولكن التعمق فيها يرجع بهِ الى حظيرة الدين القويم . وليس باكون بالفيلسوف الوحيد الذي قام عليهِ حسادهُ يناصبونهُ العدوان و يرمونهُ بالكفر ظلمًا وبهتانًا فكثيرون من قبلهِ ومن بعدهِ ثارت عليهم احقاد الحساد فاذاقتهم مرّ العذاب

هذا وقد جعل باكون المعارف على ثلاث مراتب وكل مرتبة منها تختص بقوة من قوى النفس فالذي يختص بالذاكرة من المعارف هو العلوم التاريخية على قسميها المدني والطبيعي والذي يختص منها بالمخيلة الشعر وما بقي من الفنون الجميلة والذي يختص بالعقل الفلسفة الطبيعية والعقلية واللاهوت

على ان غايتهُ ان يكون العلم ذا فائدة عملية لا علماً نظرياً بحتاً لا فائدة منهُ غير ملء الذهن بالاوهام الفارغة والتخرصات الكاذبة ولذلك اشار على قومهِ ان ينصرفوا الى درس الطبيعة اكثر من انصرافهم الى درس كتب تلك الايام وان يستشيروا الحوادث بدلاً من استشارة المؤلفين. ثم شنّ على قياس ارسطو غارةً شعواء لم تبقِ عليهِ ولم تذر فنعتهُ بالعقم ورماهُ بالعجز عن ابلاغ الانسان الى اكتشاف الشرائع الحاكمة في الكون. على ان مؤاخذة باكون للقياس من هذه الوجهة مؤاخذة حقيقية لا ريب فيها فانهُ منذ ايام واضعهِ والعلماء يحسبونهُ الآلة الوحيدة للاحاطة بالصحيح وتبيان الحق . وحتى الآن لم نرَ لهُ من الحقائق والاكتشافات ما يحملنا على التمسك بهِ شديداً وانزالهِ منا منزلة الذين اقتصروا من العلم عليهِ وظنوا ان لا حقيقة الاَّ حيث انتظمت مقدمات القياس وكانت الحدود طبق ما رسم الميزان وعرَّف المناطقة

ولما كانت غاية باكون تقويض اركان القياس وادالة سطوتهِ رأى من الضرورة ان ينشئ طريقة جديدة تقوم مقامهُ وتكفي الباحثين مؤنتهُ ولاجل ذلك وضع طريقتهُ المسماة بالملاحظة والاستقراء في كتابٍ لهُ يعرف بالقانون الجديد Novum Organum وقد ابدع في تأليفهِ ونسقهُ نسقاً خالياً من الحدس عن مبدإ العالم وكيفية تكوينهِ كما جرت عادة كثير من العلماء قبل زمانهِ وبيَّن فيهِ ببلاغة تسحر الالباب وادلة قاطعة ان للطبيعة نظاماً لا تتعداهُ وليس منهائيٌّ غير محكوم بشرائع ولا مقيد بنواميس وانها موجودة وحوادثها تقع امامنا ونشاهدها بحواسنا . ثم اسهب في ذكر المنافع التي تحصل للانسان من اكتشاف نظام الطبيعة ومعرفة قواها وان لا سبيل الى ذلك الاَّ في اتباع طريقة الملاحظة والاستقراء وعرَّف الملاحظة بانها مراقبة ما يجري من الحوادث مراقبة تامة وتحققها جيداً حتى تميز الواحدة عن الاخرى تميزاً فاصلاً وامتحان كلٍّ منها امتحاناً مدققاً على اوجه مختلفة ومتى تسنَّى لهُ معرفة الحوادث الطبيعية بطريقة الملاحظة والامتحان عليهِ ان يتخذ الاستقراء لمعرفة شرائعها وقواها . والاستقراء هو التوصل الى الحقائق العامة من معرفة الامور الخاصة او هو انتقال الفكر من معرفة الجزئيات الى الحكم على الكليات مثال ذلك اذا شاهدنا ان البرودة جمدت الماء ثم تأيدت تلك المشاهدة بالتكرار وبالامتحان في احوال متباينة وكذلك شاهدنا ان الحرارة اذا اصابت الماء على درجة معلومة حولتهُ بخاراً نحكم حينئذٍ ان ما فعلتهُ البرودة والحرارة في هذا الماء تفعلهُ في كل المياه ومن هذا الحكم ايضاً ننتقل الى حكم اعم بان البرودة والحرارة تفعلان بالزيبق والزيت والحليب ونحوها من السوائل فعلهما بالماء مع اختلاف قليل ثم ننتقل من حكم عام الى حكم اعم منهُ وهو ان كل السائلات تمددها الحرارة وتجمدها البرودة وتلك المشاهدة هي الملاحظة والحكم على العالم من

الحكم على الخاص هو الاستقراء

هذه خلاصة طريقة باكون بسطناها اجمالاً . على ان الاستقراء قديم العهد في الوجود بدليل ان هيبوقراط ابا الطب والفلسفة الطبيعية اتخذهُ مشكاة في معظم ابحاثهِ وقد ذكرهُ ارسطو مراراً وعرّفهُ بانهُ نقيض القياس. اما رجال العصور الوسطى فما عولوا عليهِ ولا اتبعوا منهاجهُ بل ظلَّ مجهولاً حتى زمن باكون الذي لم يبعثهُ من العدم المطلق بل انما ابرزهُ من الخفاء بمظهر الشباب من القوة والحياة فظهر للعالمين في شكل جديد بالغًا من الإحكام والدقة ما قلب هيئة الفلسفة وغيَّر وجه العلم وجاء بالفوائد الغزيرة التي محَّصت معارف الاقدمين فاثبتت الصحيح ونسخت الفاسد واضافت اليها حقائق كثيرة ثم اكتشفت النواميس العامة والخاصة المتسلطة على الطبيعة ودفعتها للانسان فاستخدم قواها وحوّل الماء بخارًا تطوى بهِ الفيافي والقفار باسرع من لمح الابصار وسيّر منهُ البواخر في عرض البحر تشق عبابهُ ولا تخاف شدة هياجهِ ولا تخشى تلاطم امواجهِ وذللت لهُ الكهرباء فجعلت البعيد قريباً فصار الانسان يحادث اخاهُ وهو في مشرق الارض وذلك في مغربها كأنهُ اقرب اليهِ من حبل الوريد وعرفتهُ ماهية البرق فلم يعد يحسبهُ عفريتاً ولا الرعد شيطانًا مريداً واقام لقصورهِ الباذخة قضباناً تقيهِ شر الصواعق اذا انقضت ثم نظر الى الظلمة الدامسة فصير المساء صباحًا

وهذه الكيمياء التي كان للاقدمين فيها من الآراء ما يضحك الثكلى ومن المباحث ما تنبذها عقول صغار الطلبة لعهدنا هذا من نحو بحثهم عن حجر الفلاسفة الذي يحوّل الحديد والقصدير الى ذهب وفضة ومن مثل تفتيشهم عن اكسير الحياة الدواء الذي يدفع عن مستعملهِ الموت والمرض فلما جاءها الامتحان والاستقراء جعلها حقائق راهنة لا يشوبها الخطأ ولا يعتورها التمويه فدخلت الصناعة فاحيت الصباغة والصياغة والدباغة وعمل الانوار والادهان والتفتت الى الزراعة فحسنت الزرع والغرس وعالجت امراضها فصارت الارض تفيض لبنًا وعسلاً وامّت دار الطب فاكتشفت العقاقير الناجعة وحللت مواد الطعام فبينت المفيد منهُ والضار والفاسد من الماء والنقي الى غير ذلك ما يطول بنا شرحهُ ويستغرق المجلدات تعدادهُ

هذا وان لم يكن باكون قد اكتشف اكتشافًا عظيماً يؤيد فيهِ طريقتهُ الا ان فضلهُ عظيم حيث ارشد الباحثين الى الطرق المؤدية الى ذلك فكان كما قال فيهِ احد واصفيهِ انهُ يشبهُ جندياً ينفخ بالبوق لحشد الجند في ساحة الوغى ولكنهُ لا يقاتل بنفسهِ

صموئيل بني